الفقرُ والمرضُ بين الحرمانِ والصِّراعِ الداخليِّ

مصطفى عثمان إسماعيل(*)

- مدخل:

إن ما يَشهَدُه العالمُ اليوم من صراعاتٍ وحروبٍ وأزَماتٍ تهدِّدُ الوجود البشري وتعملُ على تدميره ماديًّا وأخلاقيًّا وتنتهكُ حُرُماتِه وخصائصه وحقوقه -يقتضي أن يعمل جميعُ الشركاء على الاصطفاف معًا لتحقيقِ الأمنِ والاستقرارِ والعدالةِ الاجتماعيةِ وصَونِ كرامةِ الإنسانِ، وهي صمامُ الأمان ضدَّ الفتنِ والحروبِ والكراهيةِ والعنصريةِ، التي تَصطَلي بها اليومَ الكثيرُ من المجتمعاتِ البشريةِ، وهذه بدون شكٍّ تُناقضُ القِيَمَ الدينيةَ العُليا والمُثُلَ الإنسانيةَ.

ومن هذا المنطلقِ فإن الدعوةَ إلى السَّلامِ بين بني البشرِ، ونشرِ التسامحِ والإخاءِ والمحبةِ، وتخفيفِ حدَّة الفقرِ والمرضِ والكراهيةِ -إنما هي فريضةٌ واجبةٌ على جميع الشركاء في هذا العالمِ، وخاصَّةً أصحابَ الدياناتِ والثقافاتِ المختلفةِ؛ فالمطلوبُ هو التفاهمُ والتعايشُ بين الدياناتِ والثقافاتِ، لا التصارعُ والاحترابُ.

لقد أحسَنَ الأزهرُ الشريفُ وفضيلةُ الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب صنعًا في الدعوةِ لهذا المؤتمرِ، في هذا الوقتِ الذي يشهدُ فيه العالمُ حروبًا طاحنةً وفتنًا وكراهيةً حوَّلت العديدَ من المجتمعاتِ البشريةِ إلى جحيمٍ لا يُطاقُ.

إن الجهودَ الدوليةَ التي تبذلُها الأممُ المتحدةُ من أجل تحسينِ أوضاع الفقراء يجبُ ألا تَحصِرَ مفهومَ التنمية في المعدَّلات العالية للإنتاج، وزيادة الدخل، وتجريدها

من عناصر أخرىٰ في غاية الأهميةِ، مثل المشاركة والانفتاح علىٰ الآخَرِ، والاستفادة من تَجارِبِهم، وإعلاء قيمة القيم والأخلاق والمُثُل؛ لأنها توفِّر الإرادة الحقيقية للتغيير نحو الأفضلِ، يقول المولىٰ عز وجل في القرآن الكريم: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** [الرّعد: ١١] .

إن ممثِّلي الأديان في العالمِ هم أهمُّ الشركاء في العملِ علىٰ التغييرِ من عالمٍ تسُودُه الشّحناءُ والبغضاءُ والفقرُ والمرضُ إلىٰ عالمٍ تسُودُه المحبةُ والسَّلامُ.

الفقرُ هو عدمُ القدرة علىٰ التمتُّع بالخدمات الأساسيةِ؛ من التغذيةِ الجيدةِ، والصحةِ والتعليمِ، وهو أكثرُ من مجرد الافتقارِ إلىٰ الدخلِ والمواردِ ضمانًا لمصدر رزقٍ مُستَدامٍ، حيث إن مظاهره تشملُ الجوعَ، وسوءَ التغذيةِ، وضآلةَ إمكانيةِ الحصولِ علىٰ التعليمِ والصحَّةِ، وغيرِها من الخدماتِ الأساسيةِ، والاستبعادَ من المجتمعِ، علاوةً علىٰ عدم المشاركة في اتخاذِ القراراتِ.

ولأهميةِ معالجةِ مشكلةِ الفقرِ خصَّصَ الإسلامُ له أولَ مصارفِ الزكاة: **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ** .... [التّوبَة: ٦٠]، وخصَّصَ قادةُ العالمِ في اجتماعهم في سبتمبر ٢٠١٥م، وفي خُطَّتِهم للتنمية المُستَدامة حتىٰ العام ٢٠٣٠م، الهدفَ الأولَ في الخطَّةِ أن يكون القضاءَ علىٰ الفقرِ.

القضاءُ علىٰ الفقر بجميعِ أشكالِه في كلِّ مكان هو الهدفُ الأولُ من أهدافِ التنميةِ المستدامةِ حتىٰ العام ٢٠٣٠م، علمًا بأنه ما يزال يعيش ١,٢ بليون شخصٍ في المناطق النامية علىٰ أقلَّ من ١,٢٥ دولار يوميًّا، وتنتمي الغالبيةُ العظمىٰ ممن

يعيشون على أقل من ١,٢٥ دولار يوميًّا إلى منطقتَي جنوب آسيا وإفريقيا، وجنوب الصحراء الكبرى.

هنالك دولٌ فقيرةٌ وسكانٌ فقراءُ، فالدولُ الفقيرةُ أو منخفضةُ الدخلِ عرَّفها البنك الدولي بأنها تلك الدول التي ينخفضُ فيها متوسطُ دخل الفرد عن ٦٠٠ دولار سنويًا، وهي ٤٥ دولة، معظمُها في إفريقيا، منها ١٥ دولةً يقلُّ فيها متوسطُ دخل الفرد عن ٣٠٠ دولار سنويًّا.

أما برنامجُ الأمم المتحدة للإنماء فيُضيفُ معاييرَ أخرى تعبِّر مباشرةً عن مستوى رفاهيةِ الإنسانِ ونوعية الحياةِ، وهذا المفهوم رفعَ عددَ الدول التي ينتشرُ فيها الفقر إلى ٧٠ دولةً من دول العالمِ؛ أي أن هنالك حوالَي ٤٥ من الفقراء يعيشون في مجتمعاتٍ غنيةٍ، والأمثلة كثيرة، فالولايات المتحدة الأمريكية بها ٣٠ مليون فردٍ يعيشون تحت خطِّ الفقر، وفرنسا بها ١٠ مليون فردٍ فقيرٍ.

السيدُ الرئيسُ، السادةُ المشاركون.

المرضُ أو الداءُ هو حالةٌ غيرُ طبيعية تصيبُ الجسد البشريَّ أو العقل البشريَّ، محدثةً انزعاجًا أو ضعفًا في الوظائفِ، أو إرهاقًا للشخص المُصابِ، والأمراض كما تعلمون موجودةٌ في كل الدولِ، وتُصيبُ جميع البشرِ، بيد أن هنالك أنواعًا من الأمراض متلازمةٌ مع الدول الفقيرة والفقراءِ، كما أن إمكانيةَ معالجة الأمراض تقلُّ في الدولِ الفقيرةِ وعند الفقراءِ.

الحضورُ الكريمُ.

ليس مصادفةً أن تكون معظمُ الصراعاتِ الداخليةِ في الدولِ الناميةِ، والأقلِّ نمُوًّا والفقيرةِ، ولكن ليس بالضرورةِ أن يكونَ سببُ تلك الصراعاتِ هو الفقرَ، بل إن العكس هو الصحيحُ في أمر السببيةِ؛ إذ تلاحظ أن غالبًا ما توجد معدَّلاتُ الفقر العالية في البلدان الهشَّةِ، وتلك التي تُعاني من النِّزاعاتِ.

من جانبٍ آخَرَ إيقافُ تلك النزاعاتِ وحده ليس كافيًا لإحداث الغِنى للدولِ والشعوبِ، بل لابد من إنفاذِ سياساتٍ رشيدةٍ تُديرُ المواردَ المتاحةَ الطبيعيةَ والبشريةَ بفعَّالية؛ لإحداث التنميةِ المنشودةِ ولاستكمال السَّلامِ، واستدامته وجني ثمارِه.

السيدُ الرئيسُ، المشاركون الكرامُ.

هنالك تكاملٌ في أهداف التنمية المستدامة حتى ٢٠٣٠م، وأهداف التنمية المستدامة حتى العامِ ٢٠٣٠م سبعةَ عشرَ هدفًا؛ أولُها القضاءُ على الفقرِ، وثانيها القضاءُ التامُّ على الجوعِ، وثالثُها الصحةُ الجيدةُ والرفاهيةُ، ورابعُها التعليمُ الجيدُ، وكلُّ ما ذُكِرَ يُكمِّلُ بعضُه البعضَ، ومن الأهدافِ المرتبطةِ بهذه الكلمةِ هو الهدفُ السادسَ عشرَ، وهو يتحدثُ عن السَّلامِ والعدلِ والمؤسساتِ القويةِ، وهو هدف مرتبطٌ بشكلٍ كاملٍ مع الأهدافِ الأربعةِ الأُولى.

نُشيرُ إلى أن عددَ الفقراء في الصين والهند وجنوب شرق آسيا قد انخفضَ بفضل معدَّلاتِ النموِّ العاليةِ، التي حقَّقتها تلك الدولُ خلال السنواتِ الماضيةِ، وهذا لم يتحقَّق فقط بارتفاع درجات النموِّ، بل بالأمنِ والاستقرارِ الذي تَشهَدُه هذه

المجتمعاتُ، مما يؤكِّدُ أن السياساتِ الاقتصاديةَ والتنمويةَ الناجحةَ والأمنَ والاستقرارَ -تؤدِّي إلى تقليلِ نسبةِ الفقرِ في الدولةِ والمجتمعِ، وينعكسُ ذلك إيجابيًّا على استدامةِ السَّلامِ والاستقرارِ الداخليِّ.

من جانبٍ آخر تلاحظ تَصاعُدَ عدد الفقراء في الدول التي تشهدُ صراعات داخلية في الشرق الأوسط وإفريقيا، مما يؤكِّد أن الصراعات الداخلية تُساهم بنسبة كبيرة في زيادة نسبة الفقر والمرض والحرمان، وتستمرُّ الحَلقةُ المغلقةُ؛ إذ يُساهم الفقر المصنوع من تلك الصراعات الداخلية في مزيدٍ من تأجيج الصراعاتِ، ويؤثِّرُ المرض المنتشر والحرمان من التعليم في تقليل الإنتاج، وبالتالي زيادة الفقرِ، وإذا أُضيف لكلِّ ذلك فتنُ الخلافات والشقاق، مدعومًا بالأطماع الخارجية، يُصبحُ تفسيرُ الواقع الراهن بائنًا ينتظرُ الحلول العمليةَ الرشيدةَ.

- مُلتقياتُ ومشتركاتُ الأديانِ السماويةِ في التصدِّي لظاهرتَي الفقرِ والمرضِ:

نجدُ أن كلَّ الأديان السماوية تتساوى الى حدٍّ كبيرٍ في التعاملِ مع هذه الظواهرِ، حيث يَعتبِرُ المؤمنون في كلِّ الأديان بأن الكونَ كلَّه لله، وهو مسخَّرٌ للإنسانِ، وتتفق الأديان أيضًا في الاعتراف بواقع الحياةِ العمليةِ في كلِّ العصورِ، من تَفاوُتٍ بين الناس في الثروة بين الأفراد والمجتمعاتِ، والإقرار بوجود الغنى، وتَبِعاته من رفاهية وترف وإسراف وتبذير وتبديد للموارد والفقر وآثاره، وما يترتَّبُ عليه من جوعٍ ومرضٍ وجهلٍ وموتٍ مُحتَّمٍ، ما لم تُجابَهِ المشكلةُ في المجتمعات البشرية على اختلافِ أديانها ومُعتقَداتها، وهذا الاعترافُ لا يَعني بتاتًا الإقرارَ بالظلم

الاجتماعيِّ بين أبناء الشعوبِ والأممِ، ولا يَعني أن يتركَ الفقراء والمحرومين والمظلومين عُرضةً للجوع والحرمان والمهانة والذلِّ والإهمال وفقدانِ الكرامةِ الإنسانيةِ، ولا يَعني التسامحُ الدينيُّ أن تترُكَ الجريمةَ والمجرمين الآثمين بدون عقابٍ أو حسابٍ، بل تُوصي وتقرِّرُ الأديانُ مساعدة الفقراء ودَعمَهم وبرَّهم ورعايتَهم في جميع مجالات الحياةِ، وتَنهىٰ عن استعباد البشر وسلب حرِّياتهم، وإلحاقِ الأذىٰ والظلم بهم بأيِّ شكل وبأيِّ نوع، مهما كان كبيرًا أو صغيرًا؛ «متىٰ استَعبَدتُمُ النَّاسَ وقد وَلَدَتهُم أُمَّهاتُهُم أحرارًا»(*)، مقولة للخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب مخاطبًا واليه علىٰ مصرَ.

- الخاتمةُ:

يُعدُّ شبحُ الفقر وآثارُه: المجاعاتُ، الجهلُ، المرضُ، التفسُّخُ الاجتماعيُّ، الانحلالُ الأخلاقيُّ- من أكثر المشكلاتِ التي باتت تُؤرِّقُ سكان المعمورة، وقد تضافرت جملةٌ من الأسباب والعوامل علىٰ المستويَين المحلي والعالمي في توسيع دائرة الفقراء علىٰ الصعيدِ العالميِّ، وفي بلداننا تعرَّضَ النسيجُ الاجتماعيُّ إلىٰ ما يُشبِهُ الصدمةَ العنيفةَ، لاسيما في العقودِ الثلاثةِ الأخيرةِ؛ عقودِ الصراعات والحروب في الشرق الأوسط وشمال وشرق ووسَط إفريقيا، وتَبرُزُ آثارُ هذه الصدمة من خلال تفاقُم حجم الفقر والتهميش والإقصاء الاجتماعي لِنتاجٍ أساسي للصراعات التي يتولَّدُ عنها الحرمان الكامل، حرمانٌ من الأمن، حرمانٌ من الغذاء، حرمانٌ من الدواء، حرمانٌ من التعليمِ.

ويتَّجِهُ الرأيُ حاليًا إلى أن القضاء على الفقرِ يتطلَّبُ تركيز الجُهد على تحقيقِ السَّلامِ والأمنِ الشاملِ اقتصاديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وعسكريًّا وثقافيًّا وأيديولوجيًّا، وتحقيقِ التنمية الاقتصادية والاجتماعيةِ، وإيجادِ خدمات الأمان الاجتماعي للنهوض بأوضاعِ أشدِّ قطاعات السكان ضعفًا؛ لأن مسألَةَ محاصرةِ الفقر ومعالجةِ مُسبَّباتِه والتخفيفِ من آثاره المدمرة ليست فقط حاجةً إنسانيةً مُلحَّةً، بل صمامَ أمانٍ اجتماعيٍّ.

مع أن التعاونَ الإقليميَّ والدوليَّ يحتلَّان أهميةً كُبرى في مُحاربةِ -مكافحة- الفقر في البلدانِ الناميةِ، إلا أن التركيزَ والاعتمادَ على النفسِ يَبقَى الطريقةَ الأنجعَ في هذا، ولن يتحقَّقَ النجاحُ في هذا المجالِ رغمَ الحصولِ على المعُوناتِ والدعمِ الأجنبيِّ إلا بالاعتمادِ على استراتيجيةٍ وسياسةٍ متكاملةٍ وفعَّالة، تُشرِكُ وتجمعُ الفقراء في تصوُّرِ مصيرهم، وتطوير وتحسين ظروفِهم.

- التَّوصِيَاتُ:

ومما سبق نَخلُصُ إلى التوصياتِ التاليةِ:

لابدَّ من الخروج من حالةِ العجزِ والشللِ التي أصابت بُلداننا من جرَّاءِ الصراعاتِ والحروبِ، وما خلَّفته من أوضاعٍ إنسانيةٍ بالغةِ السُّوءِ.

الانتقالُ من موضع المتفرِّج الى موضعِ الفاعلِ، من خلالِ العملِ الجادِّ على إنهاءِ الواقعِ المأزومِ.

المؤَسَّساتُ الدينيةُ من مساجدَ وكنائسَ لابد أن تَضطَلِعَ بدَورٍ رائدٍ ومؤثِّرٍ، وتُسخِّرَ منابرَها لمجابهةِ الحروبِ والاقتتالِ.

تقويةُ أواصرِ التعاونِ والتآخي بين أفرادِ الشعوبِ للتكافل في أوقاتِ المِحَنِ والابتلاءِ، ولابدَّ من استيلادِ آلياتٍ شعبيةٍ ورسميةٍ لنزعِ فَتيلِ النزاعاتِ الطائفيةِ.

تبنِّي الوسطية وإشهارُها بين الفصائلِ المتناحرةِ بحِسبانِها الحلَّ الذي لا مندوحةَ عنه.

تنشيطُ المنظماتِ الإنسانيةِ والإغاثية لتقومَ بدَورِها على أكمل وجهٍ.

الاستفادةُ من مِسحةِ التديُّن وسَطَ الشعوب في المنطقةِ، مسلمين ومسيحيين، وتسخيرُها في مساعدة إخوانهم المنكوبين واللاجئين من شعوبِ المنطقةِ.

توجيهُ وسائلِ الإعلام ووسائطِ الاتصالِ الاجتماعيِّ؛ للتبصير بمآسي الصراعاتِ والحروبِ والاقتتالِ، وحتميةُ الركون الى التفاوضِ والتفاكُرِ من أجلِ الوصولِ إلى السِّلمِ.

غرسُ فضيلة السلم، وتقبُّلُ الآخر في النشءِ كقيم عظيمة تحفظُ للإنسان حقوقه وكرامته، وتُؤمِّنُ رُوحَه ودَمَه.

التأكيدُ على أن الجهلَ والمرضَ والموتَ والجوعَ وانتهاكَ الحرمات نِتاجٌ طبيعيٌّ للصراعِ والاقتتالِ.

التأكيدُ على أن رفاهيةَ الشعوبِ وتقدُّمَها في تكاتُفها وتوحُّدها وحرصِها على السَّلامِ، والعملِ له من خلالِ العلمِ والعملِ، وقوةِ الإرادةِ، والصبرِ وسَعةِ الصدرِ، وبُعدِ النظرِ.

الإرهابُ آفة وسرطان ليس له جنسٌ أو دينٌ، وهو عامل من عوامل الفقر والمرض والحرمانِ، ويجبُ على الجميع التعاوُنُ في مواجهتِه وحربِه.

نأمُلُ أن يخرج هذا المؤتمرُ بنتائج تَدعَمُ السَّلام وتُساهم في القضاء على الفقرِ والمرضِ والحرمانِ.

واللهُ وليُّ التوفيقُ.

* * *